

أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى

أكبر جراحي زمانه

المتوفى سنة ٤٠٣ هـ

بقلم : عبد اللطيف البدري

■ حضارة العرب زاخرة بالتراث العلمي والفكرى الاصيل ويحتاج هذا التراث الى دراسة عميقة لابراز اصالته بعد ان عفى عليها الزمن وتناساها الدارسون .

اسهام العرب فى الطب

فقد أسهم العرب فى مجالات العلوم وفى مكتشفاتها فعرف ابن النفيس ما عرف

من الدورة الدموية ولمع فى سماء الحضارة العربية أعلام كان اثرهم واضحا فى مختلف ميادين العلم فى اوربا . وفى ظلال الحكم العربى واكب ازدهار الطب ازدهار العلوم الاخرى ، فكتب الكثير عنه سواء أكان أصيلا او معربا نقلا عن حضارات سابقة اخرى .. ففي علم الوراثة كتب ابن القيم كتابا جاء فيه الكثير من الآراء الطبية التى عدها العلم الحديث صائبة وسديدة يسار فى هديها اليوم .. كما كتب زكريا محمد ابن محمود القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات عن الوراثة وضمن كتابه آراءه التى لا تقل عما ذكره ابن القيم فى كتابه .

وقد ازدهر علم التشريح وعلم منافع الاعضاء عند العرب بالرغم مما كان يثار من تحريم الدين الاسلامي للتسليخ . ولقد قال ابن رشد الطبيب الاندلسي ردا على هذه الاقاويل ان معرفة الاعضاء بالتسليخ تقرب من الله تعالى .. ويستشهد بالآية الكريمة (وفي انفسكم أفلا تفكرون) .. وبين ان مركز التصور يقع في مقدمة الدماغ .. ووصف بدقة فائقة الدوران الدموى الشعَرى في الكبد .. وطريق هضم الاكل وامتصاصه . واشار الى العلاقة بين شَعر اللحية والخصية .. وبين انه اذا تعطلت الخصية تعطل شعر اللحية . ويتضح من كل هذا انه مارس التسليخ . ومن وصف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى . وهو الوصف الذى خالف فيه ابن سينا وجميع اطباء عصره .. ووصفه ايضا كيفية تغذية عضلة القلب بالعروق الاكليلية ووصفه لجرم القلب، نستدل على ممارسته التسليخ ايضا . اذ ان مثل هذا الوصف لا يمكن فيه الاجتهاد النظرى اطلاقا .

وقد ساهم العرب مساهمة فعالة في علم العقاقير .. فلأحمد بن ابراهيم طبيب الخليفة يزيد بن عبد الملك رسالة في النبات المستعمل في الطب .. ولجابر بن حيان كتاب في السموم الحيوانية والنباتية والحجرية .. وهي دلالة واضحة على انهم درسوا هذا العلم دراسة عميقة ساعدت على الاستفادة في وصف الادوية للمرضى ولكل ما يتعلق بالصحة آنذاك .

من العرب الجراحين ، ابو القاسم الزهراوى

ومن اطباء العرب الجراحين ابو القاسم الزهراوى الذى ولد فى سنة ٣٢٤ للهجرة في مدينة الزهراء التى أنشأها عبد الرحمن الناصر في ضاحية قرطبة لاحدى زوجاته المقربات وسماها باسمها .

كان عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ذروة عصر الازدهار في الاندلس فبعد ان خمدت الفتن في بداية خلافته واستقر الامن في البلاد ، ازدهرت الاندلس ازدهارا اقتصاديا وعمرانيا وثقافيا لم تبلغه في العصور الماضية . ولم يكتف الناصر بما حققه من تقدم حضارى وفكرى شامل في البلاد ، فانشأ (الزهراء) وجعلها مفخرة العمارة وآية الجمال ، ونافس بها قرطبة فخر مدن الاندلس آنذاك وجعلها تفوقها حسنا وجمالا . ولسعة علمه وعمق ثقافته وشعوره العميق بضرورة نشر العلم بذل الكثير في اقتناء الكتب وجمعها حتى ضاقت المكتبة بمحتوياتها . وقد كان يصل العلماء والادباء صلات طيبة ويجرى لهم جرايات كبيرة فاغناهم عن طلب الرزق وصرفهم الى التفرغ لعملهم فازداد انتاجهم وارتفع شأنهم وعظمت مكانة العلم والادب في عهده .

فى مثل هذه الظروف المواتية نشأ الزهراوى (نسبة الى مدينة الزهراء) فوجد من الكتب القيمة ما يرضى رغبته للتزود منها ومن فطاحل الاعلام ما يكفل توجيهه وتنمية معلوماته وساعده ذكاؤه الحاد ودقة نظراته على نبوغه وذيوع صيته .

ولعل الصدف خدمت ابا القاسم في ان يكون الحكم الثاني ابن عبد الرحمن الناصر الخليفة بعد ابيه . فقد كان الحكم الثاني اكثر ولعا بالعلم وبالعلماء من ابيه . وقد عرف الناس هذا الولع عنه فانتشر صيته حتى ان احد ملوك الروم آنذاك بعث له بكتابين احدهما لجالينوس والاخر لأبقراط تلقاهما الحكم بسرور .. ولما ضاقت المكتبة في قصره بمحتوياتها انشأ لها بناية مستقلة كانت غاية في الابداع فيسر للعامة من الناس الدراسة والاستفادة من كنوزها . ويقال ان امين المكتبة اخبره بان فهارس الكتب قد بلغت اربعة واربعين

مجلدا في كل مجلد خمسون ورقة . وقد عددها بحوالي ستمائة ألف مجلد .

كان ابو القاسم والوزير عيسى بن اسحق الطبيبين الخاصين بالامير عبد الكريم ، ثم اختص ابو القاسم بالحكم الثاني وغدا طبيبه الخاص . وكان بيت أبي القاسم مفتوحا لطلاب العلم وطلاب التداوى ليل نهار .

كتاب ((التصريف))

لم يعرف من آثار الزهراوى الا كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) الذى يقع في ثلاثين مجلدا لم يعثر عليها بكمالها في اية مكتبة من مكتبات العالم انما وجد منها الجزء الخاص بالجراحات وهو الذى اكسب الزهراوى لقب اكبر جراحي الاسلام بل اكبر جراحي زمانه على الاطلاق . وقد جاءت هذه الشهرة بما قدم الزهراوى لهذه الصناعة من اسس متينة سليمة وبما خص هذا الفرع من اكتشافات ما زال أكثرها معمولا به حتى اليوم مع شيء من التطور اقتضته الحضارة الحديثة ، والقسم الاخر بقى على حاله كما وضعه الزهراوى آنذاك .

والذى جعل لكتاب الجراحة (التصريف) اهمية عظيمة واذاع صيته بين العلماء هو انه اول من احدث رسوم الآلات بجانب الكتابة عنها وهي تبلغ في كتابه حوالي (٢٠٠) شكل .

وكان الزهراوى يذكر في كل موضوع ما دلت عليه تجاربه العلمية الخاصة وخير مثل على ذلك الفصل المعقود لاستخراج السهام .

وصايا الزهراوى للجراحين

وقد اوصى بكتابه الجراح وصايا منها .. ان لا يندفع الى العمليات الصعبة مرة واحدة لان الاندفاع يؤدى الى نتائج خطيرة . وهي حقيقة يعرفها كل جراح معاصر وصل مرحلة النضج في عمله .. وهي قاعدة ذهبية لكل مبتدىء في هذه الصناعة . ونبه كذلك في كل موضع الى اخطار العمليات والى الاحتياطات الواجب اتخاذها في كل حالة ، وهذا أمر لم يذكر فى أى كتاب قبل الزهراوى وهو الذى لا يدركه الا من بلغ شأوا بعيدا في هذه المهنة .

امور استقل بها الزهراوى

ان الزهراوى اول من اوصى بربط الشريان بالحرير واول من استعمل الخيوط المستخرجة من مصارين الفنم واول من استعمل السنارة في استخراج السليلة (البولبيب) واول من وصف اجراء عملية الحصاة عند النساء .

وقد قسم الزهراوى العمليات الى ثلاث ..الكي ـ واستعمال المشرط ـ واستعمال التجبير وما يختص بالعظام . فاما في الكي فقد نصح باستعمال الحديد وفضله على الذهب والنحاس .. (بعلة انك اذا احميت مكواة الذهب في النار لم تعلم درجة حماوتها بسبب لونها ثم انها تبرد سريعا واذا اشتدت الحرارة صهرت وذابت .. لذلك كان الكي بالحديد اقرب الى الصواب) وهذا الكلام صحيح لان الحرارة النوعية للذهب هي (٣٢٤ .ر. وللحديد ١٣٨ر. ودرجة انصهار الذهب ١٠٦٤س° اما الحديد فدرجة انصهاره هي ١١٠٠س° .

وقد صمم الزهراوى الكى حسب اختلاف المكان المراد كيه واختلاف العضو المراد كيه واختلاف اتساع الكي وقد ادى هذا الى الاشكال الاتية ..

المكواة المسمارية للصداع والمكواة النقطة للاماكن الضيقة والمنشارية للحاجب والانف الناتن والهلالية للجفن عند استرخائه والسكينية للشفة والقمع للنواسير والمسمارية للظهر ومكواة الاسنان وغيرها .

كذلك صمم المشارط فمبضع الشق مثلا للخراريج ومبضع السلخ للجلد وغير ذلك من المباضع . وقد وصف كيفية صنع المشرط لكل عملية ونوع الحديد المستعمل وكيفية تصنيعه .

ومن الأمور التى اكسبها الزهراوى اهمية كيفية ايقاف النزف ووصف كيفية اجراء ذلك بالكي . وقال ان حرارة المكواة يجب ان تكون حمراء وليست بيضاء لان الحمراء توقف النزف بينما البيضاء لا تفعل ذلك وانما تمضى في اللحم كما يمضى المشرط .

وكل هذه حقائق مسلم بها لا لبس فيها . وقد وصف كيفية ايقاف النزف بقطع الشريان قطعا كاملا حتى تتقلص نهايتاه وتسد الفتحة فتوقف النزف . وذكر ايضا ايقافه بالربط بالخيوط ربطا وثيقا او الضغط بالاصبع او استعمال

الرفافيد وهي الوسائل التى يستعملها الطب الحديث بدرجات متفاوتة .

لقد اوصى الزهراوى بغسل الجروح ، التى يخشى من تقيحها ، بالماء المالح . وهو ما يفضل استعماله اليوم لانه يدر فيضان المصل في الجرح فيغسله ويمنع تعفنه .

فى جراحة العيون

اما في جراحة العيون فقد عالج الشعر بالكي بالنار او الكي بالدواء او بالقطع والخياطة فاما القطع والخياطة فذلك ان تقطع من فوق ظاهر الجسم شكل ورقة الاس ومن باطنه شقا واحدا ثم تخيط التى في الظاهر فقط وليس من فرق بين هذه العملية التى وصفها وبين ما يجرى الان سوى ان الشق الظاهر يشمل الغضروف اضافة الى الجلد في العمليات الحديثة . وكذلك الظفرة في العين وعلاج السيل والجرد والقدح .

في طبابة الاسنان

ويبدو مقدار ما بلغه الزهراوى من تقدم عندما تعلم ان طبابة الاسنان التى كانت في اوربا آنذاك لا تتعدى المضمضة بالبول لمنع الوجع الذى يصيب الاسنان . في الوقت الذى صنع الزهراوى مختلف الكلاليب لخلع الاسنان ومختلف المناشير والمبارد لنشر الزائدة والمشوهة ووصف باتقان شبك الاسنان المتحركة بخيوط الفضة والذهب . ووصف كيفية ارجاع الاسنان الساقطة من شدة وبين احتمال نباتها مجددا ووصف كيفية تصنيع الاسنان من عظام الحيوان لتوضع مكان الاسنان المفقودة وهما فخر التقدم في جراحة الأسنان في هذا القرن في حين ان الزهراوى قد عرفها منذ عشرة قرون تقريبا .

وقد مارس الزهراوى استئصال اللوزتين واستعمل لهذا الغرض (الجيلوتين) التى ما زالت تستعمل للاطفال ولو ان طريقة الاستئصال الكامل هي التى تفضل الان خاصة في الكبار .

ومما يثير العجب ويدعو الى التقدير ان نعرف ان الزهراوى صنع الملقط يمسك رأس الجنين ليسهل ولادته المستعصية . وعرف ومارس تفريغ رأس الجنين الذى لا يمكن نزوله بسبب ضخامته او لما فيه من تشوه . ووصف بدقة الالة التى تثقب رأس الجنين وتفرغ محتوياته .

وفي غير الطب

لم يقتصر نبوغ الزهراوى على الجراحة وحدها بل شمل كل فروع الطب والصناعات الملحقة به من صنع العقاقير الى صنع الاغذية وحاجتها في الصحة والمرض الى وصف الامراض وعلاماتها ومعالجتها . وافرد للاوبئة فصولا ونصح في كيفية الوقاية منها .

وقد اشاد عدد من العلماء بعظمة الزهراوى وذكروا عنه ما يعطى صورة صحيحة عن مكانته السامية وعما قدمه للانسانية من خدمة .

كتب الزهراوى بين ايدى اطباء اوروبا في القرون الماضية

ففي كتاب تاريخ الاداب في فرنسا جاء (ان في تاريخ الجراحة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر امرا يستدعى الاهتمام وهو ان الاطباء الايطاليين الذين غادروا وطنهم وجاءوا الى فرنسا جلبوا معهم مؤلفات الزهراوى الطبيب الاندلسي والذى يعد الزعيم الاكبر للعلوم الطبية) .

وظهرت اهمية الزهراوى عند وصول الحكيم الايطالي (روجره برم) من مدرسة سالرنو ومعه كتب الزهراوى . ثم عقبه كثيرون منهم (لافرانك) الذى وصل باريس سنة ١٢٩٠ م الذى وصف حال الجراحة فى فرنسة مقارنا مع جراحة الزهراوى فقال .. (لقد كان جراحو فرنسا كلهم على وجه التقريب جهلاء لا تكاد تفهم لغتهم .. أغبياء لدرجة انك لا تجد جراحا يطبق اصول الصناعة واضاف اننا لا تعترينا الدهشة عندما نجد الاطباء بعد ان عرفوا الزهراوى ان يضعوه بصف واحد مع جالينوس) .

وقد اعترف المؤرخون بهذا الرجل وبمؤلفه وانه كان عمدة نجاح هذا الفن فقد ذكره شولياك اكثر من (مئتي) مرة في كتابه . وقال فبريس دى كابندانتي (انه المثل الاعلى للعلم) وقال فرند (انه محيى الجراحة) .

وقد اقتبس منه ابن البيطار كثيرا وأبلغ هذه

الاقتباسات كيفية صنع الخبز المركب من أحسن أنواع القمح والذى يخمر ويكون خاليا من الشوائب . ونقل عنه ايضا في كتابه (المفردات) كيفية استخراج الزيوت .

واخذ (دى كلوديس) من اطباء القرن الرابع عشر الميلادى من كتاب الزهراوى ما يعد اساسا لما كتبه في الجراحة واشار الى اسمه فيما اقتبسه عنه .

واستشهد الطبيب الايطالي (فرارى) في القرن الخامس عشر بكتاب الزهراوى الخاص بالاطعمة .

وفي القرن نفسه نشر الطبيب الايطالى (سندس دى اردوزيرس بيزارو) كتابا خاصا بالسموم وذكر في كل صفحة منه اسم ابى القاسم واشار الى انه اقتبس من الأجزاء (٢ و ٣ و ٣ و ٥ و ٧ و ١٣ و ١٥ و ١٧ و ١٨ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٠) مواد بحثه .

ولابن السوام كتاب في الفلاحة الاندلسية قال فيه (ان ليس احسن من طريقة الزهراوى في استخراج ماء الورد) .

كتاب ((التصريف)) ، وأين يوجد اليوم

لقد أشرنا الى ان كتاب التصريف فقد معظمه ولكن بعض أجزائه ما تزل باقية موزعة على عدة مكتبات نذكر منها .. مكتبة الرباط بالمغرب والجزء يشتمل على المكاييل والاوزان (آهلورد) وفي برلين يوجد المجلد الاول منه .

وفي باريس أيضا يوجد المجلد الثانى والرابع والنص العربى للجزء الثالث تحت عنوان (ثوريكى) كتاب النظر والعمل .

وفي باريس ايضا يوجد المجلد الثاني والرابع كما تضم باريس الجزء (٢٨) تحت عنوان (ليبرسر فيتورس) أى كتاب الخادمين وفي القسم العبرى من مكتبة باريس اكثر من نصف كتاب التصريف .

وفي باريس ايضا نسخة خطية برقم (١٠٢٣٦) فيها وصف دقيق يتناول كيف كان الزهراوى يصنع قوالب من الابنوس والعاج ينقش فيها اسم الاقراص الطبية وفيها شكل القوالب .

وفي المكتبة الوطنية بمدريد مجلد من كتاب التصريف برقم (١٢٦) وثلاثة مجلدات أخرى من هذا الكتاب احدها هو المجلد الثالث برقم (٥٥٢ ــ ٥٥٤) .

وتوجد نسخة في مكتبة ولي الدين باستانبول . وفي بانكيبور اخرى . وفي الاصفية . كما ان في الفاتيكان (بورجياني) قطعة من مجلد بخط قديم منه .

ان اهم الاجزاء من هذا الكتاب الخالد هو المجلد العاشر الذى تناوله هذا البحث وهو الخاص بالجراحة ومنه نسخة مطبوعة على الحجر في لكنو سنة ١٩٠٨ ومن هذا المطبوع نسخة في مكتبة كلية الطب في بغداد ومستنسخ مخطوط مأخوذ عن نسخة المغرب فى مكتبة المجمع العلمي العراقي في بغداد .

ولعل مكتبة بولونا هي اسعدها حظا لانها تحوى على الكتاب كاملا .

لقد ترجم هذا الكتاب الىاللاتينية (جيراردودى كريمونا) وله ترجمات اخرى الى لهجة البروفانس والى العبرية . وهناك ترجمة لاتينية غير كاملة لجزء من الكتاب تحت عنوان (كتاب النظر والعمل) ترجمها س . كرم سنة ١٥١٩ .

وترجم سيمون الجنوى وابراهيم اليهودى القسم الخاص بالصيدلية في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ تحت عنوان (كتاب الخدمة) .

ويوجد القسم الخاص بالجراحة بطبعة (كاى دى شولياك) سنة ١٤٩٧ في فينيسيا .

وكذلك في طبعة بازل اللاتينية تحت عنوان طرق ابي القاسم الطبية في استعمال الالات الجراحية ومعها الكثير من الصور . ومن هذه الطبعة توجد طبعات أحدث بعنوان (جراحة أبى القاسم) لجون جاتنج طبعت في اكسفورد سنة ١٧٧٨ .

وهناك ترجمة فرنسية حديثة لقسم من كتاب التصريف بعنوان جراحة أبى القاسم (لوسين لاكلارك) طبعت في باريس سنة ١٨٦١ .

هذا هو ابو القاسم الذى يعرفه عالم الغرب منذ مئات السنين . اما بنو جلدته فالذين يعرفونه هم اقل من القليل .

عبد اللطيف البدري
المجمع العلمي العراقى ــ الوزيرية